الحسيف

قصة بقلم
عبد الإله عبد الرزاق

الى جذع نخلة قائمة بالقرب من مجرى النهر ، شد الرجل رباط الحصان بعناية .

كانت ثمة اكمة ترابية متخثرة تحيط بأسفل جذع النخلة ، وقد نتأت منها جذور غليظةمتعرجة بلون الارض ، تقطع المسافة بين النخلة والنهر . وفي استدارة الاكمة نبتت اعشاب برية واشواك وسيقان طويلة من الدغل ، بعضها جاف والبعض الاخر اخضر يستفز بخضرته قتامة التراب المحيط بالمجرى .

كانت السماء والنهر في عينيّ الرجل قريبتين جدا . ثمة سهب اخضر يتطاول على تعلية ترابية تكاد تضيق نصف النهر ولا تبدي منه سوى شريط ناحل يتسنن من بين سيقان السهب ، ويتحدّر بين غابة النخيل الى مساحة لا تبدو انها بعيدة ،فهناك جدار اخضر من عشب الغرب يغلق ضفتي النهر ، ويكاد يتبدّى كغابة معتمة . وبالرغم من ذلك كان الماء ينساب في مجراه الضيق بسطوة التفرد تحت مظلة سماء مشتعلة بضوء الشمس .

التقط الرجل عودا حادا ، نزع عن قشرته بضع ورقات جافة، ووتر العود بقوة ، فطعن صداه الريح ، ونزّ عندها صوت يشبه الحمحمة . قارب الحصان اذنيهالصغيرتين ، وقد ضيّق عينيه ، واستدار الى الوراء ، فتعثر قائماه الخلفيان في أكمة التراب ، وصدر عنه ما يشبه التأوه . فتح عينيه السوداوين على استدارتهما ولم يستطع ـ رغم ان الرجل كان في مجال رؤيته التام ـ ان يلحظ منه سوى العود الحاد وهو يخفق في الريح بشكل خيوط سود تتشكل بتشويهات متعددة . احنى راسه ثلاث مرات ، ثم سكنورأسه يوازي الضفة الاخرى من النهر وكأنه يرقبها . وتناهى اليه وقع قدمي الرجل وهو يغادره . حدثت وراءه خرخشة اوراق جافة . تلامست اذناه . واقتضته الاستدارة الى الوراء ان يزحزح جسمه بعيدا عن الاكمة ، تحرك قليلا الى الخلف ثم صهل بانخفاض شديد. كانت مؤخرته مفرطحة لا تكاد تبدي غير عنقه ورأسه المستدير ،وقد بدا في خط مائل كمن يترصد صوتا ما من الوراء . انقطع صدى وقع الاقدام . وان كانت ثمة اصداء تتواتر على فترات متقطعة .. سقسقة عصافير تندس في اعذاق النخيل المتيبسة ، وصدى صوت خضيري برّي يبحّ في زاوية بعيدة .

هزّ الحصان رأسه مرتين ، وانسدلت شعرات عرفه الكثة مغطية رقبته ومنسرحة على قمة راسه بين اذنيه . دس فمه بين الاعشاب اليابسة ومضى يمضغها متمهلا . واحدى قوائمه لا تني ترتفع كل هنيهة في محاولة لطرد الذباب الذي كان طنينه يسمع في وضوح .

عاد الرجل بعد قليل وهو يحمل كيسا ضخما محشوّا بالتبن . صهل الحصان ، واهتزّ جسده بصهيله وهو يرى ازاءه كومة من التبن. دفع الرجل بالكيس بعيدا عن الحصان الذي انكبّ على كومة التبن وهو لايفتأ يزفر كل آونة لتتطاير بضع ذرات من الكومة. انسلّ الرجل بهدوء من مكانه ومضى يخبّ في بطء . خلال منتصف المسافة بين الحصان وطريقه ، حانت منه التفاتة .. كانت هناك بقعة من الشمس تنحدر على مؤخرته ، وريح خفيفة ترنحّها . وحين واصل سيره سمع صهيل الحصان ولم يلتفت هذه المرة وانما ظل ماشيا حتى غيبته اجساد النخيل .

تحرّكت سحابة بيضاء فيرفعة السماء . استطاعت أن تحجز جزءامن ضوء الشمس . دخل الحصان في مساحة قاتمة من الظلال . حط غراب على سعفة يابسة معلقة في نخلة قريبة من الحصان . ترسخ جناحاه وتعثر في السعفة فاهتزّت وبعثرت شيئا من الضوء الذي تسلل من أطراف السحابة التي بدأت تنحدر نحو الشمال .

حرّك الحصان أذنيه ، ورفع عنقه ثم عاد الى كومة التبن التي بدأت تتضاءل وتتبعثر في مساحة عريضة ، بحيث صارت أطرافها بعيدة عنه . هبط الغراب الى أطراف الكومة في هدوء ومضى يحجل متباطئا وهوينبشفي التبن .كانت عينا الحصان السوداوان تتراوحان فيالنظر بين التبن وحركة الغراب .أجفل الغراب على صوتاستدارة الحصان في محاولة منه لاتخاذ وضع أفضل . خفق جناحا الغراب وصار أقرب الى الكيس . قفز فوقه ، وظل ينقر في عنقه المغلق ، ثم نشر جناحيه وحلق. ورسمت الشمس ظلاله على السعف والسهب والبقع البعيدة قليلا عن الحصان الذي رفع رأسه فسقطت حفنة من شعر عرفه على جانبي رفيته ، كان بوزه مبقّعا بعيدان دقيقة من التبن. زفر بقوة ، وظلّ في وقفته يطارد بذيله وقوائمه حصار الذباب الذي كان يستفز بطنينه القويّ سطوة السكون .

تحرّك الحصان أكثر من مرّة بحبله من حول النخلة ، وعالج باضطراب وهو يتعثر التفاف الحبل على عنقه ، بيد انه ظل في وقفته ومن وراءجسده الذي كانينبض قبل قليل بفعل انضوء كانت الشمس تتضاءل بضوئها وهي تتحدّر بعيدا وراء الغرب ، وقد بدأ الشفق شرارات جامدةمن كسر الضوء المشرشر تتصاعد على رؤوس النخيل، وتنحل بتباطوء واضح ، كاشفة عن مساحة داكنة مبقعة بنقاط زرق

تتآكل فيها رفع الضوء ، وفي الجهة التي كان فيها الحصان يقف ، بدا جسده في اختلاط الضوء الخفيف بقتامة الغروب بمثابة لطخة داكنة تمزّق الفراغات من بين جذوع النخيل وهو يتحرك .

وحملت ريح المساء الخفيفة صدى صهيل متقطع جعلت الحصان ينتصب في حالة ترقب وفد أشرع أذنيه ورأسه دافعا به بعيدا عن جسده ، وكأنه يتشمم روائح معينة استنفزت انتباهه . تباعد قائماه الخلفيان ، ووصل اليه الصهيل واضحا . تحرّك بقوة فشدّ الحبل عنقه الى جذع النخلة . صهل بشدة ، فتبعثر الصدى في أشد الفراغات التي تحيطه توحشا . واعاد المحاولة دون أن يتحرّك ، وحين انصت لم يترام سوى السكون لا يكاد يقطعه غير أصوات ليلية مألوفة.

عند الفجر ، كان الغبش يدكن رقعة السماء الفسيحة ، وكان صدى الماء المتحرّك في مجراه يسمع في وضوح ، وثمة اصطفاق اجنحة وسقسقة مبحوحة ، وتناثر كتل طينية من ضفة النهر المتآكلة ، واعمدة دخانية تشقق جمود الاشياء المركومة عبر غابات النخيل البعيدة ، وتروح تتعاقد في سماء نشر عليها الغبش زرقته الحائلة، التي بدت وكأنها تجهد بنشوة في بعثرة نقاط حمر تبقعها الخيوط الاولى من اشعة الشمس . كانت رقعة السماء المحصورة بين ضفتي النهر والمكان الذي يقف فيه الحصان مقفلة على توترألوان متباينة تهب الفجر مشيئته القادرة على تغيير الاشياء ، وصهر الضلال ، ومنح جسد الارض النائمة نشوة اليقظة الاولى .

تحرك ضوء ضعيف مسح رؤوس النخيل وتحدر في الفراغات المعتمة ، وهبط على المساحة التي ينطوي عليها جسد الحصان الواقف . كان الضوء من فرط انكشافه يكاد ينبض في مسامات الاشياء المظلمة ، حاملا معه نكهة الماء والاسماك والسحب والسعف المتكسر ودخان الحرائق البعيدة ، كان يهبط كفلالات كثة من الضباب ، يتسرب عبر الاكمات والمنحدرات الخضراء ، يمس الظلال الساقطة وراء اجساد النخيل في دسامة وامتلاء ، ويروح منتشرا وغائرا ومنفتحا الى ما وراء اشد الاشياء قتامة .

ارتفع قرص الشمس موازيا من الجهة المقابلة طرف غابة الغرب البعيدة ، فحدد نهايتها عن زرقة السماء ، تاركا فراغا مسننا داكنا. كان الحصان ما يزال يستدير حول جذع النخلة يقف مرة ويصهل مرة اخرى ، معاودا الانحناء على كومة التبن التي صارت الان تفترش الارض تتطاير عيدانها البعيدة مع كل حركة تصدر منه . ساعات قليلة وتكامل النهار ، حيث كانت اشعة الشمس ترسم بقعا متعددة تتجانس مع حركة السقف وسيقان السعف القصيرة . اقترب الحصان بفمه من مجرى صغير وراح يعب الماء ببطء . زفر بقوة وكشف عن صفين حادين من الاسنان البيضاء .

ظل ساعات النهار في وضع مضطرب . يصهل مادا رقبته جهة غابة النخيل المغلقة ، وجهة غابة الغرب المعتمة ، كان في هيئة من ينتظر ان يجيء الرجل ليفك رباطه كما كان يفعل سابقا . لم يحدث شيء من ذلك كما يبدو .

من وراء ظهر الحصان كانت ثمة امراة تقود وراءها بقرة حمراء تنسلخ كل آونة من بين جذوع النخل . اشرع الحصان أذنيه وحاول ان يستدير الا ان الحبل ضايقه بشدة فبقي في مكانه ، وقد انفرجت قوائمه وظل عنقه يحاول اتخاذ وضع يمكنه من التخلص من اطباقة الحبل ليتسنى له الاستدارة من جانب سهل .

انحدرت سحابة داكنة فاشتعلت البقعة التي كانت وراء الحصان وفي المكان الذي كانت تسير فيه المراة مع بقرتها ـ بقتامة خانقة. رفس الحصان بقائميه الاماميين فأثار زوبعة من التراب وصهل بعنف، كان هناك رجلان يهبطان الى الضفة من الجهة التي تقطع الطريق على المراة افترقا عند نخلة . اختفى احدهما خلف وهدة ترابية وانقض على المراة من الوراء وكفه على فمها ، وجذب الاخر الحبل من يدها واسرع بالبقرة التي خارت بصوت هو مزيج من الدهشة والقلق اختفى الرجل الاول بالمراة وهو يتعثر خلف جدار طيني قائم على جانب سافية ضحلة مملوءة بالاعشاب . وقدم الثاني وحده اليهما. كان الغبار يتناثر بعنف ، وحمحمة اصوات خفيضة تتدحرج في دوائر الفراغ المحيطة بالحصان . ظل الحصان يصهل بوحشية . توارت السحابة عن مكانها فضخت ضوءا تفجر في المكان . انفلتت عقدة الحبل المشدودة على عنق الحصان شدتين ، واستطاع اخيرا ان يستدير صار ظهره وراء النهر ، وكانت شرارات الضوء المغتسلة بماء النهر تنفرط على دكنة جسده المضطرب . استعاد المكان هدوءه السابق ، ومن المكان هذا نفسه قدم الرجل صاحب الحصان ، حين صار قريبا منه ، كان هذا يصهل ويشمم ويحمحم بتوتر دافعا بعنقه في صدر الرجل الذي تركه واقترب من كيس التبن ساحبا بيديه وصدره كومه كبيرة منه وركمها ازاء فمه ، دس الحصان فمه فيها ثم زفر بشدة فتطايرت ذراتها بسرعة . رفع رأسه ، واذناه تتحركان بقلق . استدار عن الرجل وصار وجهه ازاء النهر . بقي في سكونه دقائق ثم استدار بمؤخرته عن الرجل فصارت قوائمه في كومة التبن ، ومضى يمضغه بصمت . ابتعد الرجل عنه ، واضطجع عند جذع نخلة حيث كانت تريق ظلا واسعا . كوم رجليه وراح يغط بعد قليل في النوم .

سمع الحصان لاول مرة صهيلا متقطعا ، جعله يرفع رأسه بتوتر. صهل فاهتز جسده كله . وسكن كل شيء .

عبرت المكان ريح خفيفة عابثت كومة التبن فنثرت بعضها . من امام الحصان كان ثمة رجل بسحنة حمراء يسحب وراءه جثة بدت انها لصبي صغير ، حينما رأى الحصان اجفل ، ثم عاود سيره في هدوء تام . مشى من زاوية ابعدته عن الرجل الذي رأى ظهره المتكوم من وراء جذع النخلة .

حين وصل الى ضفة النهر ، زحزح الجثة ببطء ، وتركها تنحدر الى الماء ، وحين استدار وقع نظره على وجه الحصان البعيد الذي كان ينظر اليه من بين جذعي نخلتين . خيل اليه انه ينظر اليه بوحشية المتحفز للهجوم . اجفل متراجعا الى الوراء .. تراءى اليه انه سمع صهيل الحصان ، وثمة غبرة ترتفع ازاءه . تسلل من وراء نخلة ، ووجد نفسه فجاة امام الرجل الذي كان نائما . اسرع ماشيا بخفة حتى توارى .

تغير لون الماء الى خضرة السهوب المزروعة على امتداد الضفة، وارتشت موجة منه ، زفرت بين جذور القصب ، ثم بقبق الماء في وش ناعم ، واطبق السكون مرة اخرى .

نحل ضوء الشمس ، وبدت الكتل الدخانية تمس رؤوس النخيل على الضفة الاخرى ، وصار لون غابة الغرب مائلا الى الحمرة الخفيفة .

قام الرجل من مكانه ، وتمطى قليلا متأملا ما حوله دون ان ينظر الى الحصان ومشى مبتعدا حتى غيبه النخيل .

طأطأ الحصان عنقه في المجرى القريب منه وهو يرقب ضفدعة كبيرة تنظر اليه بعينين هادئتين ، ودس بوزه بين الاعشاب الحادة ، قفزت الضفدعة واختفت بين الماء والعشب . نبح كلب من بعيد .. وانكتم صوت رصاصة وعبر غابة النخيل القريبة كان المساء يهبط بمشيئة السحر وبتباطؤ جد خفيف .

* * *

مرت ايام كثيرة دون ان يغادر الحصان مكانه ، او ان يأتي الرجل ليفك رباطه ، ويأخذه كما كان يفعل قديما .

من وراء الحصان وامامه ايضا كانت ثمة اشياء غريبة تحدث،

لا يملك ازاءها الا ان يصهل ثم يدس بوزه في كومة التبن ويصمت وبمرور الايام تغيرت هيئته ، فظهرت السمنة واضحة على قوامه ، كما أن بطنه تضخمت وتهدلت بين قوائمه .

في صباح يوم غائم ، قدم الرجل الى الحصان ، ملقيا امامه بكومة التبن . ابتعد الحصان الى الوراء قليلا ، باعد ما بين اذنيه، وفتح عينيه باستدارة محتقنة ، مد عنقه الى كتف الرجل . زفر بقوة ، ودفع بقائميه الاماميين ، مستندا على الخلفيين في وضع مترنح وهبط بهما جامحا بقوة على ظهر الرجل ، فانكفأ على وجهه بعيدا قليلا عن قائمتي الحصان ، ذاهلا مرعوبا غير مصدق ما حدث، وحين قام ، عاجله الحصان ـ وكأنه ينتظر قيامه ـ بقائميه وهو يصهل بوحشية . فانهد جسد الرجل ، ساقطا على ظهره .انفتحت امامه السماء ، وقد بدت السحب الداكنة قريبة من وجهه جدا .

رفع الحصان مرة اخرى قائميه ، واسقطهما بعنف على صدر الرجل واشرك قائميه الخلفيين ... كان الحصان يرض جسد الرجل بقوائمه وهو يصهل بجنون، وقد تطايرت من شدقيه رغوة كثة من الزبد ، كانت السحب الداكنة تغلق اخر الفجوات المضيئة في سماء خرساء معتمة . فتح الرجل عينيه ببطء ، وقد جمدت اعضاؤه عن الحركة تقريبا كانت الدماء تغطي وجهه تماما ... رأى السعف الاخير من رؤوس النخيل يهبط على عينيه كمراوح سوداء ، وهو يحس بقوائم الحصان تنهد على صدره وبطنه كحجارة ضخمة مسننة ، يفرقع صداها بصدى الصهيل المبحوح الذي استحال الان الى حمحمة تشبه العواء المجروح .

انتفض الرجل انتفاضة مقتولة ، جهد ان يصرخ ، الا ان صوته تخشب في فمه .. واستسلم اخيرا بنصف عينين ، يحدق بنظرة غائمة الى السعف العالي .. الى رقعة السماء المغفلة بالسحب السوداء .

من المؤكد ان صهيل الحصان المتواصل وصخب قوائمه الساقطة قد اثار ضجة هائلة جعلت كثيرا من الناس يقدمون من بين جذوع النخيل ومن خلف الجدران الطينية ، وعبر السواقي الضحلة او الشاخات المسورة باشواك العاقول .. يجيئون مرة واحدة متراكضين خائفين ، مشكلين حلقة حول الحصان الغاضب الذي لايزال يواصل قتاله لجثة ساكنة ، غارت تقريبا في حفرة ترابية ، بينما كان الحصان يثير زوبعة من التراب وكأنه يتعمد ذلك ، لينثرها على جثة الرجل التي ضاعت معالمها بالتشويه والدماء والتراب . كان ثمة حز دائري يحيط رقبة الحصان ينزف دماء بغزارة ، يسيل على رقبته ويتحدر حتى الكتف .

صهل الحصان ملقيا نظراته السريعة لاول مرة على جموع الناس الذين لم يجرؤ احد منهم على الاقتراب . مد جسده بقوة فانفرز الحبل في عنقه ، وتناهى صوت الحبل وهو يندس في الحزالمنزوف كالصليل الواطيء . مد جسده مرة اخرى فانقطع الحبل ،تعثرالحصان وكبا على قوائمه . حاول بعض الواقفين ان يمسكه ، الا انه صفن وهو يصهل واندفع بقوة ، وصدى خببه يقرع وحشة السكون ،ويمزق هدوء المكان ..

وبقي الناس في مكانهم مبهوتين . كان ثمة طفل لا يتجاوز عمره ثماني سنوات قد انفلت من حشد الناس ، فاطا على الحصان طريقا آخر .

سرت ضجة ولغط شديد ...

كان الحصان يدخل دغلا جافا ، وقد تباطأت حركته حتى توقف...

صار الطفل اخيرا في مواجهته . هز رأسه وصهل بهدوء ..

امسك الطفل بالعنان ، حمحم الحصان ، دون ان يبدي تذمرا، ثم حرك قوائمه ، وبدأ يخب ببطء ، تشبث الطفل بالعنان ، حتى صار قريبا من ربوة وهو يساوق خطواته بخطوات الحصان البطيئة .

التمت يداه الصغيرتان على رقبة الحصان التي تخثر عليها الدم في بقع سود ، لا تني تنكشف تحت غزارة عرفه المبتل بالعرق والغبار.

صهل مرة أخرى ، رأى الطفل رأسه القلق يترنح على ساعده .. ثم رآه يدسه بين صدره وذراعيه ، وبقي ثمة وانفاسه اللاهثة تقطع سكوت الاشياء ، انزلق رأسه على رقبة الطفل واطل من الوراء بصمت.

استطاع الطفل بعد قليل ان يقفز على ظهره .

مضى الحصان يخب بقوة نحو غابة الغرب ، حيث كان ثمة صهيل يصل صداه الان واضحا جدا ، وقد بدت غابة الغرب عارية بخضرتها ، ومغسولة بضياء الشمس التي انسلخت من دكنة السحب. كان الصهيل ما يزال يبعثر وحشة المكان ، وقوائم الحصان تبقع ساحة الضياء الساقطة على الخضرة المنداة .

كانت غابة الغرب تبدو في الشمس ، وتحت وقع الخبب والصهيل وكأنها مفتوحة بين المياه والسهوب .

بغداد

عبدالآله عبدالرزاق

ملفات « الآداب » الخاصة

قررت « الآداب » ، كما سبق ان أعلنت ، ان تصدر ملفات خاصة تضم الى الاعداد العادية ، وتتضمن مادة ضافية من نتاج كل بلد عربي في مختلف الفنون الادبية (شعر ، قصص ، مسرح ، نقد ، بحث) . وستصدر هذه الملفات تباعا ، كلما توفرت المادة الكافية ، عن ادب كل من البلدان العربية الآتية : الجزائر ، السودان، المغرب، البحرين، الكويت، ليبيا الخ... كما تصدر ملفات خاصة اخرى عن الآداب السوفياتية ، الفرنسية ، الصينية ، الايطالية ، ادب اميركا اللاتينية ، الادب الافريقي الحديث ..

وتعد « الآداب » العدة لاصدر اعداد خاصة عن « القصة العربية الحديثة » ،و « اتجاهات المسرح العربي الحديث » و « الفنون التشكيلية العربية » الخ ...

والادباء مدعوون الى المشاركة في تحرير هذه الملفات والاعداد الخاصة التي ستكون ، من غير شك، وثائق ادبية ومراجع هامة لكل اديب ودارس .